جامعة القاهرة
كلية دار العلوم
قسم البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن

الترتيب في بناء النص القرآني

دراسة بلاغية

رسالة لنيل درجة الدكتوراه

مقدمة من الباحث/

صلاح شعبان عبادة يوسف

تحت إشراف

أ.د. حسن جاد طبل

أستاذ البلاغة والنقد بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م

الإهـــــداء

إلى أستاذي الدكتور /

حسـن جـاد طبـل

اليد الكريمة التي قادتني إلى دائرة النور

صلاح عبادة

شكر وعرفان

أتقدم بهما إلى أستاذي الدكتور حسن جاد طبل؛ لما أسبغه على هذا البحث وصاحبه من أبوة صادقة وأستاذية رفيعة. وعلى توجيهه لي إلى مجال البلاغة القرآنية، أولاً، ثم على إيثاره إياى بموضوع ترتيب النص القرآني، ثانياً.

وتحية إلى مشروعه الطموح بإدخال آليات علم النص وتحليل الخطاب إلى مجال البلاغة القرآنية، جامعا – بذلك– بين الأصالة والمعاصرة حقاً. فجزاه الله عني خير ما يجزي به عالماً صادقاً مخلصاً.

صلاح عبادة

مقـــدمـــة

الترتيب هو المبدأ الجوهري الحاكم في بناء النص. وهو عنصر نظامه الأساس إذ بمعاينة تجلياته نستطيع التعرف على الرتبة التي يحوزها كل جزء، والوقوف من ثم- على مدى اتساقه وانسجامه مع بقية الأجزاء الأخرى، وكيفيات تعالقه وارتباطه بها، وتحديد مبلغ أهميته من نفس قائله ومتلقيه على السواء.

وبتأمل عملية الترتيب، يمكننا إدراك حركة الوحدات النصية وتفاعلاتها داخل إطار بنيتها الكلية، ورصد سيرورتها نحو إنتاج المعنى الكلي للنص، والوصول إلى غاياته ومراميه.

وترتيب النص القرآني- على وجه التحديد- هو أحد وجوه إعجازه المتعددة، بل هو مرتكز إعجازه، وآية نسقه التأليفي الفذ ومجلى بلاغته الكلية، وهو التجسيد الحي لوحدته الكلية المنسجمة المتماسكة.

الدراسات السابقة:

قليلة هي الدراسات التي تناولت ترتيب النص القرآني بالدرس البلاغي التحليلي؛ رغم الأهمية البالغة التي يحظي بها هذا المبحث الذي يمثل أحد الوجوه البارزة لإعجاز النص القرآني. ومن تلك الدراسات:

- "ترتيب نزول السور القرآنية" للدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة ضمن كتابه: "بحثان حول سور القرآن". وهو بحث يدور حول الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم، معتمداً في تحقيق تلك القضية علي ما أورده جلال الدين السيوطي في كتابه" الإتقان في علوم القرآن" حيث يورد منظومتين تعرضان لترتيب سور القرآن ترتيباً نزولياً:

الأولي لابن الحصار. والثانية للبرهان الجعبري، سماها: "تقريب المأمول في ترتيب النزول".

وهذه الدراسة فضلاً عن كونها نظرية؛ فإنها تمثل الوجه المقابل لدراستنا هذه التي تعتمد الترتيب النصي المصحفي أساساً في معالجة البني الثلاث التي اختارتها.

- "القرآن في سورة منه" وهي للدكتور محمد عبد الله دراز، ضمن كتابه "النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم". وهي دراسة اجتازت تحدياً كبيراً بمقاربتها أعظم سور القرآن طولاً، ومحاولة وقوفها علي كيفية ترتيب أجزائها وتلاحمها وتناسقها وصولها إلي وحدة محكمة متلاحمة منسجمة متناسقة رغم تباين الموضوعات وغزارة القضايا التي حوتها تلك السورة العظيمة. ولكن هذه الدراسة، بمعالجتها وحدة شبه مستقلة من وحدات النص القرآني، تعد دراسة جزئية فلم تقف علي امتدادات تيار المعاني في السور التالية لسورة البقرة، تحقيقاً لوحدة كلية تشمل النص القرآني كله.

هذه الدراسة:

ومن ثم جاءت هذه الدراسة مكملة لما سبقها ولكنها ـ في الوقت نفسه ـ تنامت في سياق تصوري مغاير لها، حيث امتازت عنها بنزوعها الكلي الموضوعي؛ إذ عمدت إلى مقاربة ثلاث بنى كبرى كلية موضوعية هي: البنية القصصية، والبنية التصويرية، والبنية الحجاجية. وقد تناولت– الدراسة– كلا من هذه البنى، بطريقة رأسية، أي سارت في دراستها في مسار خطي متقدم بطول النص القرآني من أوله إلى آخره، لتعاين كيفيات ترتيب النص القرآني لكل بنية منها، وتستجلى أشكال التعالق النصي بين وحداتها، وصولاً إلى نوع الوحدة في كل بنية منها.

هنا عرض شارح للإطار المنهجي للدراسة. وهو ما نهض هيكلها البنيوي على أساسه. وقد تجسد هذا الهيكل البنيوي في تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة هذا تفصيلها:

التمهيد: يمثل التأصيل النظري للدراسة. وقد احتوى على أربعة مداخل تأسيسية هي:

- **المدخل الأول- تحرير المفاهيم:** وينهض باستجلاء التشكيلات المعرفية التي تحيل إليها المصطلحات الثلاثة الأساسية التي تقوم عليها الدراسة، وهي: الترتيب- البناء- النص. بادئاً بالكشف عن الدلالة اللغوية الوضعية للكلمة، ومثنيا بالدلالة الفنية الاصطلاحية ومشيراً إلى ما بين الدلالتين من صلة، إذا ما وجدت.
- **المدخل الثاني- الترتيب في الموروث البلاغي والنقدي:** ويحاول التعرف على أهمية مبدأ الترتيب في الموروث البلاغي والنقدي. ودوره في بناء النص. وقد عالج النقاط التالية:
  - موقع الترتيب من علم البلاغة.
  - الترتيب وصناعة التأليف.
  - الترتيب ووحدة البناء عند عبد القاهر الجرجاني.
  - الترتيب ووحدة البناء عند حازم القرطاجني.
- **المدخل الثالث- الترتيب في علم النص:** وفيه تتحدد الصلة بين مبدأ الترتيب و"النظام" بوصفه المفهوم المركزي الذي تتمحور حوله البنية التشكيلية العليا للنص. وفيه تتضح- أيضاً- العلاقة بين "الترتيب" ومعايير النصية السبعة التي وضعها "روبرت دي بوجراند" في كتابه: "النص والخطاب والإجراء". وهذه المعايير هي: السبك- الحبك- المقصدية- المقبولية- الموقفية- الإعلامية – التناصية.
- **المدخل الرابع- بين الترتيبين النزولي والنصيّ للقرآن:** وفيه تتجلى النقاط الأربع التالية:
  - **نسق تأليفي فذ:** وتبرز النمط التأليفي الفريد للنص القرآني والذي باين كل أنماط التأليف العربية المعهودة من قبل.

- **ترتيبان وهدفان:** وفيها إشارة ماهدة إلى أن ثمة ترتيبين للقرآن الكريم: ترتيب نزولي وترتيب نصي، وإلقاء بعض الضوء على طبيعة كل منهما، وغايته.

- **الترتيب النزولي: بلاغة التأثير:** حيث يرتكز الترتيب النزولي، الشفاهي على السياق المقامي، ويهدف إلى التأثير والجذب المباشر، ويعتمد على المنطق الوجداني.

- **الترتيب النصي: بلاغة التعالق:** ويعتمد على المنطق العقلي، النابع من تأمل البنية الداخلية للنص والتي تقوم على نسق من العلاقات الرابطة بين كل أجزائه.

الفصل الأول- ترتيب البنية القصصية (قصة بني إسرائيل نموذجاً):

ويتكون من توطئة وثمانية مباحث. هذا بيانها:

- **التوطئة:** تناولت نقطتين أساسيتين هما:

- **أولاً: طبيعة القصة القرآنية:** التي تجمع بين البعدين اللذين لا يخلو منهما أي نص أدبي رفيع وهما:

  - **البعد الوظيفي:** وهو خدمة الدعوة الإسلامية .
  - **البعد الجمالي:** ويكمن في ترتيبها الفني وبنيتها الناظمة لأجزائها.

- **ثانياً: مقاربة القصة القرآنية:** وفيها بيان للمنهج/ المناهج التي عولجت القصة القرآنية على هديها. والإشارة إلى اختيار العنصر الدلالي المهيمن الذي درست القصة من خلاله، وهو "الكتاب"، وعلاقة بني إسرائيل الجدلية به.

- **أما المباحث الثمانية،** فقد استقل كل واحد منها بطائفة من الآيات التي تعالج طوراً من أطوار قصة بني إسرائيل الممتدة، المتلاحمة الأجزاء، والتي نستطيع أن نستشف أنساق علاقاتها الناظمة لجملة أحداثها من عناوينها، وهي:

- **المبحث الأول:** استهلال غاضب
- **المبحث الثاني:** تقويض المتخيَّل الثقافي اليهودي
- **المبحث الثالث:** تقابل
- **المبحث الرابع:** موازاة
- **المبحث الخامس:** دوائر متداخلة
- **المبحث السادس:** كشف
- **المبحث السابع:** ارتداد
- **المبحث الثامن:** اختفاء تدريجي

الفصل الثاني- ترتيب البنية التصويرية (صورة المنافقين نموذجاً):

وقد اشتمل على: توطئة، وثلاثة مباحث، ترسم، في مجموعها، صورة المنافقين الكلية في النص القرآني:

- **التوطئة:** عالجت عدة نقاط على صلة وثقي بتشكيل الصورة المدروسة وهذه النقاط هي:

○ **أولاً- النفاق مصطلحاً تصويرياً:** وفيه يتجلى إعجاز القرآن التصويري في إيثاره "النفاق" علماً على تلك الظاهرة الخطيرة. حيث الاتساق التصويري الشديد بين الدلالتين: دلالة الوضع اللغوي والدلالة الاصطلاحية في هذه المادة اللغوية الشفافة: (ن. ف. ق).

○ **ثانياً- الصورة القرآنية: المنزلة والوظيفة:** وفيها يتم التركيز على منزلة الصورة الأدبية بين وسائل التعبير الفني: قديماً وحديثاً، وكيف آثرها القرآن ليعبر من خلالها عن أعقد الظواهر النفسية والإنسانية؛ لأثرها الناجع في العقل والوجدان.

○ **ثالثاً: الصورة الكلية: المفهوم ووسائل التشكيل:** وهنا محاولة لتحديد مفهوم جامع للصورة الكلية. وتعريف بأهم الآليات الفنية، التي أسهمت في بنائها. وقد تمثلت تلك الآليات في:

١-الصورة البلاغية

٢-أسلوب الحقيقة

٣-أسلوب الوصف

٤-أسلوب الحوار

٥-آليات أخرى

- **المبحث الأول: مشهد تأسيسي:** ويتركز في الآيات الثلاث عشرة: من الثامنة إلى العشرين من سورة البقرة. وهي تمثل النواة التكوينية لصورة المنافقين الكلية، والتي ستنبثق منها بقية مشاهد الصورة على امتداد النص القرآني وهو المشهد الذي يحمل السمات النفسية الأساسية لشخصية المنافقين مثل: التناقض والكذب والخداع والجبن وسوء الأدب وعماء البصيرة، وهي الخطوط الكبرى العريضة للصورة.
- **المبحث الثاني: الصورة المحورية:** وتمثل هذه الصورة المحورية Thematic Imagery قلب الصورة الكلية النابض. راصدة تجلياته النفسية والتصويرية من: كذب وكثرة حلف وتذبذب وتردد ودوران أعين في مواقف الشدة وفرار وسرعة انقلاب.... الخ.
- **المبحث الثالث: صورة ساخرة:** ويعرض لجانب مهم من جوانب الصورة الكلية للمنافقين، حيث يصورهم سفهاء ساخرين من المؤمنين ومستهزئين بهم؛ ومن ثم فقد عوقبوا بتصويرهم في تلك الصورة الساخرة منهم، التي تعد تجسيداً للبلاهة: "كأنهم خشب مسندة"

الفصل الثالث- ترتيب البنية الحجاجية (قضية البعث نموذجاً):

وقد تشكل من تقديم ومهاد تأسيسي وأربعة مباحث ونعرف بها تباعاً في إيجاز:

- **التقديم:** ويلقي الضوء على الأهمية البالغة التي احتازتها قضية البعث في الضمير الإنساني في كل الأمم وعلى مر العصور.

المهاد التأسيسي:

وقد عولجت فيه مجموعة من المفاهيم والمبادئ النظرية والاستراتيجيات التحليلية، التي تعد الإطار المرجعي لدراسة قضية البعث من منظور حجاجي وقد تجلت تلك المفاهيم والمبادئ والاستراتيجيات في النقاط التالية:

في البنية الاصطلاحية للحجاج: حيث استجلى المفهوم:

أولاً- في الموروث البلاغي: متخذاً أشكالاً اصطلاحية عدة أبرزها: الجدل، والمذهب الكلامي، وهو الصياغة الناضجة التي بلورها البلاغيون العرب، والتي تكاد ترادف الحجاج بمفهومه الحديث.

ثانياً- في البلاغة الجديدة: حيث قدم له كل من: "بيرلمان وتيتيكا"، "وأندرسين ودوفر"، وحافظ إسماعيلي علوي؛ تعريفات عديدة ناضجة وشاملة.

نظرية الحجاج: وتقدم لنا مجموعة من المبادئ النظرية المفسرة الشارحة، التي ترتكز عليها الممارسة الحجاجية. وهذه المبادئ هي:

مكونات الحجاج: وهي ثلاث مكونات كبرى: المكون السياقي / الثقافي، والمكون المنطقي، والمكون اللغوي.

استراتيجيات الحجاج: وهي متعددة منها: البلاغي ومنها اللغوي ومنها المنطقي العقلي، ومنها الواقعي العملي التجريبي. كما سيكشف التحليل النصي.

غاية الحجاج: وهي الإقناع وحمل الآخر المحاجج على التسليم بصدق دعوى خصمه وتبني وجهة نظره في القضية المطروحة. وأركان الإقناع- كما حددها أرسطو- ثلاثة هي: أخلاق القائل وتصيير السامع في حالة نفسية معينة. وركن الخطاب نفسه بما يحمله من تقنيات إقناعية.

- **المبحث الأول- استدلال عكسي:** وفيه تتمثل ذروة ترتيب السلم الحجاجي، حيث لا يسعى إلى إثبات ظاهرة البعث الأخروي، وإنما يتجاوز ذلك، ليجعل منها هي نفسها دليلاً على قضية الوجود الإلهي.

-**المبحث الثاني- حجج تجريبية:** وهي الحجة الكبرى الثانية في ترتيب السلم الحجاجي القرآني. وفيها عرض لعدد من وقائع البعث التجريبي، حيث يحيي الله الموتى أمام بعض الشاكين والمنكرين للبعث، ليثبت لهم إمكانية حدوثه. ومن هذه الوقائع: واقعة إحياء بعض بني إسرائيل الذين أخذتهم الصاعقة عندما أرادوا أن يروا الله جهرة، وواقعة إحياء قتيل بني إسرائيل، وواقعة إحياء الألوف الذين خرجوا من ديارهم هرباً من الموت، وواقعة إحياء المارّ على القرية الخاوية على عروشها، وواقعة إحياء الطيور بين يدي سيدنا إبراهيم عليه السلام. وتلك الوقائع البعثية تمثل: "الحجة الواقعية"

المبحث الثالث- قياس إستدلالي :

وهو تجسيد للحجة العقلية . وهي الحجة الكبري الثالثة في ترتيب السلم الحجاجي الهادف إلي إثبات قضية البعث الأخروي . وقد انقسم القياس الاستدلالي إلى قسمين :

.**الأول- القياس الاستدلالي الخارجي:** وينصب علي ما يقع خارج الإنسان من ظواهر طبيعية يؤدي تأملها إلي الاقتناع بقضية البعث .

.**الثاني- القياس الاستدلالي الداخلي:** ومداره على لفت الإنسان المنكر للبعث إلى تأمل عملية خلقه وبث الحياة فيه من بعد أن لم يك شيئاً ليستخلص منها الدليل العقلي على أن من قدر على الخلق والإحياء الأول؛ قادر- بل هو أهون عليه- على الإحياء البعثي الآخر يوم القيامة.

-**المبحث الرابع: إقناع وجداني:** وهو الحجة الرابعة والأخيرة في ترتيب السلم الحجاجي القرآني الرامي إلى إثبات البعث. وقد انقسم إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: ترسيخ قرب وقوع الساعة في الوجدان: وتتركز فكرته الأساسية حول الإعجاز النفسي للقرآن من خلال طريقته في الإقناع بقرب وقوع الساعة، حيث استخدم تقنية "الخوف من المجهول" والنص على ذلك القرب في مواطن كثيرة. وإيثاره

لفظ "الساعة"- بوصفها إحدى أصغر وحدات الزمن- علماً على القيامة في هذا السياق.

ثانياً: الحجاج الوجداني في المفردة القرآنية: وفيه توظيف للجرس الصوتي والمعاني والشحنات العاطفية القوية، التي تحملها بعض ألفاظ القيامة مثل: الحاقة والطامة والصاخة والقارعة، ليبث من خلالها الخوف والفزع في نفوس المنكرين للبعث.

ثالثاً: الحجاج الوجداني في الأسلوب القرآني: وقد اقتُصر فيه على أسلوبين اثنين فقط وهما:

أ- **أسلوب التكرار:** الذي يعمل على ترسيخ الشعور بالحالة الوجدانية المراد بثها، من خلال الإلحاح عليها وتكثيفها.

ب- **أسلوب الشرط:** لقوة استحواذه على نفس متلقيه، وإثارة توقعه وترقبه، وخاصة في سياقات الترهيب والعقوبة، إذ يعمل طول الترقب والتعليق على تمكن الحالة الشعورية المراد وضع المتلقي في إطارها ،ومن ثم حدوث الإقناع والاقتناع.

الخاتمة: وتلخص أهم النتائج التي توصل إليها البحث، ورأي- من ثم- تسجيلها، والتنويه بها.

وبعد، فلست أدعي أنني قلت الكلمة الفصل أو الأخيرة في هذا الموضوع الزاخر، ولكن حسبي أنني لم أدخر وسعاً، فاجتهدت قدر طاقتي؛ نشداناً للحقيقة العلمية المنضبطة. فما كان من توفيق في هذا البحث فهو بفضل الله، ثم بتوجيه أستاذي، وما كان من نقص أو تقصير فهو مني وحدي. والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم فهو من وراء القصد: " فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ" **صدق الله العظيم**

تمهيـــــد

مداخل تأسيسية

المدخل الأول

تحريـــــر المفاهيـــم

فـي مسـتهلّ هـذا التأصـيل النظـريّ للدراسـة، يبـدو مـن الضـروري تحريـر أهـم المفـاهيم التـي حواهـا عنوانهـا: الترتيـب – البنـاء – النصّ، حتـى نكـون علـى وعـي بمـا تحيل إليـه هـذه المفـاهيم مـن تشـكيلات معرفيـة، نُشـدانا للدقـة العلميـة. بـادئين بالـدلالات الوضــعية الأساســية التــي تحملهــا دوالّ هــذه المفــاهيم، عبــوراً إلــى دلالاتهــا الفنيــة الاصطلاحية. مع الإشارة إلى ما بين الدلالتين من صلة، إنْ وُجدت.

أولاً- التــرتيــب :

تدور معاني المادة اللغوية للفظة (ر . ت . ب) في المعاجم العربية حول جملة من المعاني الأساسية منها:

١- الثبوت والدوام: (رَتَبَ الشيءُ يَرْتُب رُتُوبا، وترتب ثبث ودام وله عز راتب. التُرتُب والتُرتَب كله : الشيء المقيم الثابت. قال زيادة ابن زيد العذريّ:

ملكنا ولم نُملك ، وقُدنا، ولم نُقَد،

وكان لنا حقا على الناس تُرتَبا

٢- الصعود والعلوّ التدرّجي: (رتب الكعب، ورتب في الصلاة: انتصب قائماً، ورقى في الدرج ومراتبها).

٣- المنزلة: (ومن المجاز: لفلان مرتبة عند السلطان ومنزلة. وهو من أهل المراتب، وهو في أعلى الرتب. والمرتبة: المرقبة وهي أعلى الجبل)[١].

٤- حسن التنظيم: وهي الدلالة المركزية التي يوردها "معجم اللغة العربية المعاصرة" لمادة (رَ . تَ . بَ) ويعني بها:

- ينظم في سلسلة : dispose (in a regular)

- يرصف: dress

(١) يُنظر: لسان العرب لابن منظور. دار صادر بيروت – لبنان. الطبعة الرابعة ٢٠٠٥. .وكذلك: أساس البلاغة للزمخشري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب مادة : (ر .ت . ب)